عبد الرحمن بدوي

شيخ المحققين لتراث الفلسفة العربية(*)

د. مصطفى لبيب عبد الغني(**)

تنوَّعت جهود عبد الرحمن بدوى، الفيلسوف المصرى المعاصر، فشملت الفكر الفلسفي بأسره في قضاياه الرئيسة وعند أعلامه البارزين. والمتتبِّع لمؤلفاته المتلاحقة لأكثر من خمسين عامًا يلحظ شغفه المبكِّر بالفكر الإسلامى المنفتح على حضارات الدنيا التي سبقته أو عاصرته، والتي نهل من ينابيعها الفيَّاضة وبخاصة النبع اليوناني. ولقد تأكدَّت ثقه بدوى- منذ مطلع حياته العلمية- بأن روح الحضارة العربية والمعبِّر عن وجودها الخلاَّق هو في طابعها الإنسانى الرَّحب، فنجده وهو يسلك دروبَها الوَعِرة ينكَّب على الكثير من مفردات هذه الحضارة بغية الكشف عن إنجازها المتميِّز في التاريخ.

وتشعَّبت به هذه الدروب ما بين عرضٍ وتحليل لتراث الأعلام، ورصدٍ لإبداعات المتكلمين (في "مذاهب الإسلاميين") وتجارب المتصوفة (في "رابعة العدوِّية"، "شطحات الصوفية"، و"تاريخ التصوف الإسلامى")، وترجمةٍ لطائفة من نفائس بحوث المستشرقين ("التراث اليوناني في الحضارة الإسلامية"، و"شخصيات قَلِقة في الإسلام"، و"ابن عربى لآسين بلا ثيوس" ، و"الخوارج والشيعة" لِفْلْهَوْزن")، وثبْتٍ ببليوجرافي لبعض جوانب هذه الحضارة عند عَلمٍ من أعلامها الشوامخ ("مؤلفات الغزالى"، و"مؤلفات ابن خلدون"). وكان اهتمام بدوي بإبراز جهود المستشرقين في دراسة التراث الإسلامي كبيرًا إلى حد دفعه إلى إصدار موسوعة هامة عن المستشرقين. وَمثَّلت علاقة بدوي بالمستشرقين- قديمًا وحديثًا- مناسبةً يحلو للبعض أن يخوضوا في الحديث عنها متناسين جسارَته في رفض الانصياع لوَهْم المركزية الأوربية في التاريخ، متغافلين عن بيانه -منذ ما يقرب من أربعين عامًا- لريادة الفكر العربي ودوره في تكوين الفكر الأوربي وتجاوز تأثير هذا الدور لميدان النظر العقلي إلى ميدان التطبيق العملي في الصناعة والزراعة، وعدم اقتصاره على الفلسفة والعلوم الطبيعية والفزيائية والرياضيات، بل وامتداده كذلك إلى الأدب: الشعر منه والقصص،

(*) أستاذ الفلسفة الإسلامية وتاريخ العلوم، كلية الآداب جامعة القاهرة.

(**) عبد الرحمن بدوي، «أرسطو عند العرب - دراسة ونصوص غير منشورة»، جـ١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٧، ص ٦٤ (من التصدير العام للنشرة).

وإلى الفن: المعمار والموسيقى منه بخاصة. وحرص بدوي على تحديد البيئات التي تمَّت فيها عملية الإخصاب بين الفكر العربي البالغ كمال تطوره وبين العقل الأوربي وهو بسبيل يقظته وتلمس طريقه في البداية. والذين يتحفَّظون على علاقة بدوى بالمستشرقين يتغافلون عن نبل مقاصده حين يعترف بالفضل لذويه بغية شحْذِ الهمم العربية الخائرة التي تراجع عزمها، وغاب وعيها بماضيها، واضطربت رؤيتها لحاضرها بين أمم العالم المتمدين؛ وهو في ذلك كله يؤكِّد على الدوام حضور «الأنا» العربى في علاقته الإنسانية بـ"الآخر" الغربي. وهى علاقة بناء وتأسيس لا هدم وإلغاء، وعلاقة تعارف وتعاون لا توجُّس وصراع، وهو حضور لا يُصادر على حق المفكر العربى في دَحْض كل صور الافتراءات والشُّبَه الجهولة والمغرِضة التي تستهدف أَعزَّ ما لديه. ولعلَّ في آخر ماكتبه بدوي -في دفاعه المجيد عن الإسلام باللغة الفرنسية- آية صدق على ذلك.

ويتفوَّق على ما سبق كله- مع عظيم قيمته وجليل أثره في التعليم الفلسفي- جهده غير المسبوق في تحقيق النصّ الفلسفي العربى ونَشْره نشرًا علميًا دقيقًا؛ ومعلوم بالطبع أن ذلك هو أول مراحل الصراط المستقيم إلى فَهْم التراث وحُسْن تقويمه. ويزداد تقديرنا لهذه المهمة إذا ماعرفنا أن تراثنا الإسلامى الهائل جُلّه مفقود، وقليلُه الباقي موزَّعٌ على أرجاء الدنيا في المكتبات العامة والخاصة، وفي أروقة المساجد، وضمن مقتنيات بعض المتاحف، وأنَّ بعض هذا القليل مختلط بسواه، وبعضه الآخر أصابه ما أصابه من تشويه أو تحريف ومن انتحال أحيانًا؛ مع تنوُّع صور إخراجه، وتباين خطوطه، واختلاف نُسَخ النَّصِّ الواحد منه عَبْر حياته في التاريخ، وكلها عوائق يُدرك مصاعبها أهلُ الاختصاص.

وإذا ما تبيَّنا أنَّ من أكبر النقائص المنهجية هي الانطلاق - في النظر إلى تراثنا والحكم عليه - من مجرّد التعرُّف على بعض مفرداته المجتَزَئة وإغفال بقية الكثرة الهائلة الغائبة منه؛ فنغدو بذلك كمن يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض، ونقع في وهم التطابق بين الكلّ والجزء، وتلك نقيصة علمية وأخلاقية تضيع بسببها الحقيقةُ، ويتعمَّق معها الشعور بالنقص، فإنَّ أىَ جهدٍ رشيد يُبذل في سبيل الكشف عن جانب ما من جوانب تراثنا وتوسيع رقعةِ التعرف عليه يكون مقدمةً لاغنِى عنها.

ولئن يكن نشر التراث في مجموعه مهمةً يلزم أن تضطلع بها أجيال متواصلة من باحثين أولي عزم فإن ما أَنجزه بدوي من نَشْر أعمال بعينها من عيون التراث الفلسفي، بَدْءًا من "أرسطو عند العرب" سنة ١٩٤٧ وانتهاء" بـ"كتاب الأخلاق" سنة ١٩٧٧ كان حقا

مناسبةً طيّبةً لمعالجة أخطر قضايا الفكر العربى، ومنها: مدى أصالة هذا الفكر من ناحية ("صوان الحكمة" للسُجستاني - "الإشارات الإلهية" للتوحيدى - "رسائل فلسفية للكندى والفارابي وابن عَدِيّ وابن باجة" - و"الإنسان الكامل للجيلي".. الخ)، وصلة الفكر العربى بالتراث اليوناني بعامة من ناحية أخرى وبيان صورة هذا التراث اليوناني، الصحيح منه والمنحول، في عيون العرب من ناحية أخرى والكثير منه نُقل عَبرْ وساطة سُريانية في أول الأمر ("أرسطو عند العرب" - "أفلاطون في الإسلام" - "أفلوطين عند العرب" - و"الأفلاطونية المحدَثة عند العرب")، والكشف عن المنابع المنوَّعة للفكر العربى وبخاصة: اليونانية والهندية والفارسية ("الحِكمة الخالدة": لمسكويه - و"مختار الحِكَم ومحاسِن الكَلِم" للمبشّر بن فاتك). وحرص بدوي في تقديمه لنشراته على تَتبُّع تاريخ النصّ وحياته في الفكر العربى وفي الفكر الأوربى كذلك عند مترجميه وشرّاحه.

* * *

عَبَّر بدوى، منذ البداية، عن وعيه بالهدف الحقيقي من نشر النصوص وهو بَعْثُ التراث المغيَّب في التاريخ، وتقديم شاهد على المنزلة العالية التي بلغتها عناية العرب بالتراث القديم. وحقًا كشف بدوي عن واقعة تاريخية هامة حين وَجَّه نّظر الباحثين إلى إمكانية الاستعانة بالترجمات العربية القديمة ذاتها للتراث اليوناني في استعمالنا الحالي للمؤلفات اليونانية (المنقوصة في بعض جوانبها) بما أنَّ ترجمات العرب القديمة جاءت على درجة عالية من الدِّقة. وفي ذلك بيان للقيمة الكبرى لهذه الترجمات في دراسة التراث اليوناني بعامة (ومعلوم أنه ركيزة الفكر الغربي الحديث وجوهره)، مع ما يدفع إليه من نزعة إنسانية جديدة تهيب بالمؤمنين بالإنسان أن يشاركوا فيها. وفضلا عن ذلك فإنه يمكن الاستعانة بالترجمات العربية القديمة في استعمالنا الحالي لتلك المؤلفات اليونانية الأصلية إذْ صارت تغني في الواقع عن ترجمتها من جديد؛ لأنها تنهض بحاجاتنا العلمية اليوم، ونهوضها بها لا يقتصر على دقة النقل بل يمتد خصوصًا إلى دقة المصطلح الفني.

واستهدف بدوي من تحقيقه للتراث أيضًا الاضطلاع على أيامه بمهمة جليلة هي إيجاد نثر فلسفي عربي معاصر ظاهر القيمة بعد أن تطوَّر لدينا النثر في نهضتنا الحديثة في اتجاه أدبي باعد كثيرًا بينه وبين التلاؤم مع النثر الفلسفي الذي يمتاز بالإيجاز والإحكام. والعَوْد هنا يكون عَوْد استلهام واستيحاء لا عَوْد تقليد واقتصار واكتفاء. وهذه الدعوة إنْ لزمت لزمانها في أربعينيات القرن الماضى فهي ألزم ما تكون

لزماننا الراهن الذي اعتلَّت فيه لغتنا العربية إلى حد أنّ انكَّب على مداواة عللها بعض المترخِّصين من أهلها ممن هان عليهم خطرُها.

* * *

آيةُ الصدق مع النفس ومع الغير هو أن نعرف أنَّ لكل صنعة أساليبها الفنيّة، وأنَّ لكل معلول علّته الحقيقية: فتلك سُنَّة الله في خلقه التي لا نجد لها تبديلا. ولقد أدرك بدوي بصدق أنّ الوصول إلى غايته النبيلة في الكشف عن بعض جوانب من تراثنا لن يكون إلاّ بمنهج مثمر في تحقيق النصوص؛ فاختار لنفسه منهجًا وطبَّقه بالفعل بعد أنْ أَلمَّ بمناهج المحققين من قبل. وهو يصف منهجه بأنه «بسيط وبقدر ما هو بسيط فهو خصبٌ دقيق معًا: وهو أن نجيد قراءة المخطوط عن تدبُّر وحسن فهم. وهذا مبدأ على الرغم من بساطته ووضوحه كثيرًا ما أغفله الناشرون بالأحرى أجفلوا منه وكأين من أخطاء في تحقيق النصوص لم يكن السبب فيها إلا عدم إجادة القراءة. والمهم هو أنْ تقدِّم للناس- على أساس ما يتيسَّر من مخطوطات قَلَّت أو كُثرت أو كانت وحيدة- نصًا جيّدا يحاكى تمامًا ما في الأصول المخطوطة بعد تدبّرها تمام التدبّر. فالذين مارسوا المخطوطات يعرفون أن ثمت أحوالا لا حصر لها من إهمال النقط أو تشابك الحروف أو تقلّب النقط من فوقها واضطرابها بين حروف الكلمة الواحدة أو الكلمات المتجاورات. ومثل هذه الأحوال لا يمكن أن تُعدَّ اختلافات في القراءات، إنما هى عوارض شخصية في المخطوطات يجب أن يستقريها الناشر لنفسه أثناء القراءة الأولى للمخطوط، ثم يُعيِّن -لنفسه أيضًا- أحوال اضطرادها حتى يتهيَّأ له جهاز تحليلي لحسن القراءة؛ وإلا فستكون النتيجة أن يضل القارئ إذا ما ذُكِر في الجهاز النقدي كل ألوان الإهمال أو الهفوات الهيِّنة لسقطات القلم فلا يستبين ما إذا كان بإزاء اختلاف قراءة أو مجرد مخالفة خطيَّة أو قلمية تافهة ومفهومة».[1] ويدفعُ هذا بعالمِنا الكبير إلى القول: «لهذا فلسنا نتردَّد في اتهام أولئك الذين يلجأون إلى هذه الطريقة بالعجز عن فهم النصوص وقراءتها، أو بالتمويه على القارئ بوضع جهاز نقدى ضخم محشوّ بهذه الاختلافات المزعومة ليُدخل في روعه أن الناشر قد بذل مجهودًا هائلاً، والحق أنه لم يبذل شيئًا أكثر من جهدالنَّسْخ والمسْخ معا دون أن يبذل أى مجهود في الفهمْ وتدبّر المقروء. ومع هذا نراهم يصيحون ملء أشداقهم وتصف ألسنتهم الكذب: إن هذا هو

---

(١) عبد الرحمن بدوي «أرسطو عند العرب» ـ دراسة غير منشورة» جـ ١ مكتبة النهضة المصرية، القاهرة سنة ١٩٤٧م، ص ٦٤ (من التصدير العام للنشر)..

المنهج العلمى الصحيح! مع أن الأَوْلى بهم أن يُسمّوه منهج الإحصاء الآلى العاجز.

«ولَكَم رأينا في مقارنتنا لبعض النصوص التي نشرها هؤلاء الناشرون المزعومون بالأصول المخطوطة التي نشروا مانشروا عنها أن ما ادَّعوه تحريفًا أو اختلاف قراءة لم يكن في الواقع إلا سُوء قراءة من عيونهم وعقولهم. كما رأينا كذلك من هذه المقارنات أنَّ من أسباب الوقوع في أخطاء النشر أن الناشرين كثيرًا ما يعتمدون على نَسْخ النُّسَاخ الحاليين دون أنْ يراجعوا المخطوطات نفسها ويعملوا فيها فتكون النتيجة أن يفترضوا وقوع أخطاء أو نقص أو تحريف في المخطوطات الأصلية، مع أنَّ هذا لم يقع إلا في نسخهم هم التي استنسخوها؛ وكان يكفيهم مراجعة المخطوطات نفسها كيما يكونوا على بيِّنة من أمر هذه الأخطاء أو أنواع النقص والتحريف المظنونة»[1].

ولقد أعان بدوى على تطبيق منهجه المثمر في التحقيق معرفته الجيِّدة باللغة اليونانية القديمة وبعدد من اللغات القديمة الأخرى كالعبرية واللاتينية، فضلاً عن اللغات الأوربية الحديثة كالألمانية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية والإسبانية والروسية!، وبعضها كان قد تُرجم إليها المخطوط العربى، وما نظن أحدًا غيره من الباحثين العرب المعاصرين- فيما نعلم- قد أوُتِى مثل هذا الحّظ من الصبر ومن الجهد الصادق في التعلمّ المستمر.

* * *

تمثَّلت جودة الإتقان لهذا المنهج الصارم في النشرة التي أنجزها بدوي عام ١٩٧٧ لكتاب أرسطو الهام «الأخلاق النيقوماخيَّة»- الذي كان قد ترجمه «إسحق بن حنين» من اليونانية إلى العربية في القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي (عصر ازدهار الترجمة في التاريخ)- فجاءت نشرة بدوى مُزَوَّدةً بتعليقات وشروح ومقارنات فيلولوجية؛ ابتغاء الإيضاح والتدليل على أهمية الترجمة العربية القديمة التي تمَّت عن أقدم نصّ يوناني معروف لنا، وتميَّزت بذلك عن جميع الترجمات الأوربية اللاحقة للنص سواء منها اللاتينية أو الأوربية الحديثة، والتي اعتمدت على مخطوطات يونانية أحدث زمنًا من المخطوط الذي ترجمه «إسحق بن حنين»[2]. وقَدَّم بدوي لنشرته -هذه- بعرض أهم مؤلفات أرسطو الأخلاقية، وأهم الشُرَّاح اليونان الذين بقيت لنا شروحهم أو تلخيصاتهم للكتاب، وكذلك عرض مخطوطات النص اليوناني الباقية حاليًا في العالم وعددها ٩٩

---

(١) السابق، ص ٦٤ - ٦٥.

(٢) عبد الرحمن بدوي، «الأخلاق تاليف أرسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين»، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٩، ص ١١ - ١٢ (من التصدير العام للنشرة).

مخطوطًا كاملاً و٢٠ مخطوطًا تحتوى مقالات كاملة منه أو على شذرات، فضلاً عما ورد في شروح الشرَّاح. وتحدَّث بدوي عن "نيقوماخيا" في المصادر العربية في تواريخ العلماء الأطبَّاء والفلاسفة، وما نُقِل في المؤلفات العربية الأخرى وبخاصة عند «ابن النديم»، و«القِفْطي»، و«ابن أبى أُصيبعة»، و«المبشِّر بن فاتك»، وعما ماحصل من تحريف لهذه النصوص، ثمّ ذكَر الشواهد والنقول عن «نيقوماخيا» عند الفلاسفة المسلمين وبخاصة «الفارابي» (ت: ٣٣٩هـ)، و«أبي الحسن العامري» (ت: ٣٨١هـ) و«مسكويه» (ت: ٤٢١هـ) و«ابن باجة» (ت: ٥٣٣هـ) ،و«ابن رشد» (ت: ٥٩٥هـ). وألحق بدوي بمقدمته قائمة بالمراجع التي احتوت بيان نشرات النص القديمة وترجماته، وشروحه الحديثة ثم شروحه القديمة اليونانية وشروحه اللاتينية[١].

وقد أَظهر بدوى أن بالمخطوط العربي مقالة مُضافة بين المقالتين السادسة والسابعة؛ ولذلك جاء في إحدى عشرة مقالة بدلاً من عشر، وهذه المقالة المضافة مفقودة في نسخة المخطوط الباقية الآن ومحفوظة في ترجمة لاتينية مختصرة قام بها «هِرمَن» الألمانى سنة ١٢٤٣م أو سنة ١٢٤٤م وكان لها أكبر الأثر في «القديس ألبير الكبير» و«روجر بيكون»[٢].

ومع أن المخطوطة العربية الوحيدة الباقية للكتاب تخلو من ذكر اسم المترجم إلا أن بدوى استطاع أن يُحدِّد لنا هويته، فذكر أنه «إسحق بن حنين» وذلك استنادًا إلى المقارنة بين أسلوب الكتاب وترجمة «إسحق بن حنين» لكتاب «النفس» لأرسطو[٣].

وقد أكمل بدوي المواضع المثقوبة والممحوَّة، وصَحَّح بعض الأخطاء، وحقَّق أسماء الأعلام، ووازن بين القراءات الواردة في الصُّلب وفي الهامش أحيانًا. والأهم أنه استطاع أن يُكمل الناقص من الكتاب فترجمه عن النص اليوناني الأصلي وهو، كما يقول، قرابة ١٤٪ منه، وزوَّد نشرته بترقيم «بكَر» الذي تُعَدُّ نشرته لأعمال أرسطو هى المعتمدة عند الباحثين المحدثين،[٤] ،وذَيَّل نشرته بدراسةٍ موسَّعة عن الكتاب باللغة اللاتينية.

على هذا النحو جاءت نشرة بدوي للنص العربي القديم لترجمة كتاب الأخلاق لأرسطو مثالاً يُحتَذى.

* * *

(١) عبد الرحمن بدوى، «الأخلاق تأليف أرسطوطاليس ترجمة إسحق بن حنين»، وكالة المطبوعات بالكويت ١٩٧٩، ص ٣ - ٤٤.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١ - ٤٢.

(٣) المرجع السابق، ص ٤٤ - ٤٥.

(٤) المرجع السابق، ص ٤٥ - ٤٦.